

رؤية التاريخ في الرواية المغاربية الحديثة

مقاربة تطبيقية في التناص

كلمة الدكتور فتحي بوخالفة ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ملخص

تعنى هذه الدراسة بحضور التاريخ في الرواية المغاربية الحديثة. تشتمل الدراسة على تأسيس نظري يتعلق بحديث عن الظاهرة الأدبية بشكل عام، والنصوص الأدبية و المعايير الفنية والجمالية للإبداع إلى جانب الحديث عن شخصية الفنان والكتابة وعلاقة النص بالمتلقي، ثم حديث عن حضور التاريخ في صميم النص الروائي. كما تشتمل أيضا على تحليل لعلاقة التاريخ بالبنية السردية للخطاب الروائي المغاربي، من خلال النماذج المختارة. إن علاقة التاريخ بالبنية السردية، تمثل لب الدراسة وقد اشتملت على عنصرين أساسيين هما: وظيفة الإخبار، والبنية السردية تتعلق وظيفة الأخبار بتحديد الوظيفة الجمالية للتاريخ في علاقته بالنص الروائي. أما البنية السردية، فقد تضمنت دراسة لأثر التاريخ على النص الروائي، سواء من ناحية الخطاب أو من الناحية الفنية الجمالية. وتنتهي الدراسة بخاتمة لأهم النتائج.

résumé

Cette étude traite de la présence de l'histoire dans le roman maghrébin contemporain; elle est constituée d'un fondement théorique sur le phénomène littéraire en général, les textes littéraires, et les normes artistiques et esthétiques de la création, en plus de la personnalité de l'artiste, l'écriture, la relation du texte avec le récepteur, et la présence de l'histoire au fond du texte romanesque.

مجلة منتدى الأستاذ : المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية ، سطح المنصورة، 25000، قسنطينة، الجزائر

الهاتف / الفاكس: 00 213 (0) 31 62 29 98

e-mail : bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

Elle vise aussi à déterminer la relation de l'histoire avec la structure narrative du discours romanesque Maghrébin; à travers des exemples choisis.

Cette relation représente l'essence de l'étude, et elle comprend deux éléments principaux:

-la fonction d'information: qui détermine la fonction esthétique de l'histoire dans sa relation avec le texte romanesque.

- la structure narrative : vise à étudier l'effet de l'histoire sur le texte romanesque, soit du côté du discours, ou du côté artistique esthétique.

Cette étude s'achève par une conclusion qui résume les résultats importants.

تأسيس نظري :

تحدد الظاهرة الادبية ضمن منظومة سياقات متعددة، مما يؤكد الاهتمام المتواصل بعملية إنشاء النص الأدبي في حركيتها الفنية المحددة بالتطورات التاريخية. ومجمل الأطر العامة والخاصة التي تصوغ انطباعات الفنانين وتبرز مواقفهم من الحياة الواقعية ليدعوا منها آدابهم، لذلك فإن التعرف على حركية الإبداع الأصلية، يبدأ بالبحث في البواعث المنشئة للإبداع سواء كانت هذه البواعث موضوعية أم ذاتية ورصد عملية تنامي الأفكار وابتكار الصور وتفاعلها فيما بينها لتحديد النص الأدبي .

تصنف النصوص الادبية ضمن دائرة الإنتاج الفكري، وإن البحث في الانماط المحددة لهذا الإنتاج يعني محاولة اكتشاف الأساليب المتميزة التي يبنى عليها تصور النص لجملة السياقات الخارجة عنه، سواء كانت هذه السياقات تاريخية، أم اجتماعية، أم نفسية، أم فكرية

وإذا كان النص قادرا على استيعاب خارجياته، فإن مقدرته تلك لا تتحدد إلا بالأساليب الفنية، التي من شأنها جعل النص فضاء لتلاحم مرجعيات أخرى، لا تعدو أن تكون بعد ذلك مكونا بنيويا للبنية الشمولية، وهذا ما يجعل التفكير في

تحليل إمكانات حضور النصوص التاريخية أو الأحداث في حد ذاتها عاملا يفتح افقا جديدا للقراءة والاستنتاج.

ومن المسائل المطروحة اليوم، مسألة تحديد نظام الإبداع وجعله يرقى إلى مستوى المعايير الفنية والجمالية، مع أن الاعتقاد السائد هو استحالة الوصول بالإبداع إلى نمط من القوانين والشروط الموضوعية التي تحدد نسقه، بحكم التفاوت في درجات الوعي بين الأنماط الفكرية والتخيلية للفنان، والمستوى العلمي للباحث في العلوم التجريبية مثلا. وتتطور المناهج النقدية ووصولها إلى درجة هامة من الموضوعية في سرد المعطيات ووضع النتائج وصياغة المواقف أمكننا الحديث عن دخول الأعمال الأدبية الإبداعية حيز النظرية المعرفية، فصار الحديث جاريا عن فكرة النص و المؤلف والقارئ و البنية... إلى غير ذلك من المصطلحات الأدبية الأخرى، ومن المعلوم أن الفنان قد لا يعي لحظة الإبداع جملة من القوانين والشروط المعقدة إلا أن الوعي بها أو معرفتها يساعد على تقدم الفن، من غير أن تكون لنتائج النظريات العلمية تأثيرا على الوعي المبدع بشكل سلب في متغيراتها الطارئة، إنما لزاما عليها أن تغني وعيه وخياله وعواطفه بالتنوع النفسي والجمالي لفنه.

إن تطور الفكر وارتقاء شروط عمله، "سواء كانت تحليلية أم تصورية، مشروط اجتماعيا وحيويا وقد كدس العلم مادة غزيرة تؤكد هذه العلاقة الشرطية في تطور فردي، وهي تظهر في التطور التاريخي أيضا في أعلى مستويات الإدراك المعرفية ولذا لا بد من دراسة تلك العناصر في مستوياتها الاجتماعية، التاريخية، و المعرفية، والنفسية، والفيزيولوجية المختلفة و المترابطة في الوقت نفسه".⁽¹⁾ وانه لا يمكن إنكار الجهود المبذولة اليوم في دراسة خصائص تشكل الفكر وفهم تطوراتها، وكيفية الوعي بالواقع من منطلق الفكر التجريدي، وعليه فإن شروط المعرفة الموضوعية تقضي بالتوسع في دراسة التفكير الفني الذي يجعل المبدع يتميز بفرادته، ودراسة علاقات ذلك التفكير بالظروف الاجتماعية والتاريخية. تمثل شخصية الفنان المنبع المتفرد للإبداع وهي بذلك لا تحيد عن كون طبيعتها وحدة "ديناميكية" تدخل في تفاعل إيجابي مع عوامل بيئية بأبعادها

الاجتماعية و التاريخية. إن النمط الفكري المحدد لشخصية المبدع لا مناص له من استيعاب الخلفيات الاجتماعية و التاريخية التي تحدد نسق الإبداع الفني. إنها شخصية تشتمل جزئياها المتفرعة لتؤكد كليتها المتفاعلة، محددة نمط تفكيرها و انفعالاتها و أحاسيسها من الواقع الخارجي بمناقضاته الاجتماعية و التاريخية. وفي هذه الحال أمكننا التأكيد بأن " عملية الإبداع الفني تكمن في - نظرنّا ومن موافقنا - في أن الفنان يعاني انفعالا أو توترا إزاء أحداث أو وقائع أو ظواهر اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو مشاهد جمالية أو أعمال فنية أو كتابات أو أقوال تدور حول تلك الأحداث، أو الوقائع أو الظواهر أو المشاهد أو أعمال تثير نفسه وتوتر وجدانه، تكون هي السبب أو العلة في دفعه إلى الإبداع الفني وفقا لإطاره الذي اكتسب مضمونه من قبل ⁽²⁾. " مع التأكيد على المفارقة النوعية بين توتر الفنان وانفعاله، وتوتر وانفعال الشخص العادي وهذا بحسب درجة الوعي والنضج عند كليهما. فإذا كان توتر وانفعال الفنان يقودانه إلى الإبداع، فانه عند الإنسان العادي يمر دون إبداع ما، ويبقى السبب في وجود الإطار القوي أو عدم وجوده بصورة ضئيلة .

وإذا كانت الكتابة تعني التموضع داخل فضاء خطي، فإن ذلك التموضع لا يلبث أن يتخلل عن طبيعته الأصلية كونه ينغلق ضمن فضاء محدد، إما الكتابة في هذه الحال تعني قراءة الذات و النظر إليها بتمعن وفهم خصوصياتها التي تنطوي عليها. والكتابة عندما تتخذ سمة الإبداع، فإنما تتطلع بدور أساسي ، تتمثل في استماع إلى صوت الذات الصامت الذي يصاحب تصورات واقعية بعينها، لذلك وجب أن تكون الكتابة في أبعادها وتشكالاتها مطابقة للتصوير الفني للواقع المكتوب عنه الذي تتجسد صورته المماثلة لا شعوريا، وهي الصورة التي تخلق آلية الإبداع بوضع العلاقات الدالة الناجمة عن خصوصية الشكل المكتوب، وفي هذه الحال نجدنا أمام مفهومين شاملين للفضاء، يتعلق المفهوم الأول بمفهوم "الفضاء النصي" ، الذي يتم فيه تسجيل الدال الخطي، بحيث يتم إدراكه كعلاقات داخل نسق يحدده المقام التخاطبي وهو فضاء لا يستدعي مشاركة ولا موقعا محددًا لجسد المتلقي، لأن هذا الأخير يكون ملغى في هذه الحالة.

المفهوم الثاني هو مفهوم "الفضاء الصوري" الذي يستدعي مرجعية في موقع المتلقي، ومشاركة تؤثر عليها مدة التلقي البطيئة التي تعرض المسح البصري السريع من أجل امتلاك الشكل لا امتلاك العلاقات".⁽³⁾

إن من أكبر المسائل النقدية التي تثار في أيامنا هذه، مسألة علاقة النص بالمتلقي، فبعد المفارقة النوعية التي أرسنها البنيوية بمختلف اتجاهاتها، بشأن وظيفة النقد الأدبي، إذ كانت وظائف هذا الأخير مقتصرة على وظائف تقليدية معروفة، تضطلع بالتقويم، والشرح والانتقاء. فإن هذه الوظائف اليوم صارت تمثل مرحلة سابقة من مراحل النقد، إذ غلبت الأبعاد المعرفية على الدراسات الأدبية، فصارت النماذج المتكررة في مجال العلوم الإنسانية تجد في النقد الأدبي موضعاً يستلهم منها طرقها وإمكاناتها في القراءة والتحليل، فصار مجال الرؤية المتغيرة مسلمة بديهية من مسلمات الدراسات الأدبية الحديثة.

إن حالات تلقي النص الأدبي كما عودنا النقد الغربي من خلال دراساته المتقدمة منحصرة في حالتين تقليديتين هما: حالة الإقناع وحالة الانفعال. فإذا كانت الحالة الأولى تختص بالتوصيل العقلي، واعتبار حالة الوجود التي عليها النص حالة منطقية تحدد علاقات الارتباط الداخلية بينه وبين القارئ. بمنطق التعبير وتكريس المعنى في ذهنية المتلقي بهدف الإقناع، فإن الحالة الثانية تختص بمجال عاطفي مميز، الذي يأخذ من الحس المباشر مرتكزا له، فينشئ انفعالا تلقائيا لدى القارئ ويعتبر اللغة استعمالا خاصا ذات كينونة نحوية إنشائية، وهذا ما يفسر وجود الأشعار الغنائية.

وبحكم مواجهة القارئ لمعادلات نصوية مختلفة فإن الأمر يقتضي إعادة تصنيف حالات التلقي وهذا ما يذهب إليه عبد الله محمد الغدامي، في إضافته للحالة الثالثة، وهي حالة الانفعال العقلي، إذ يقول عنها: "إنها حالة انفعال وهذا يضمن للنص شروط وجوده الجمالي ولكنه ليس انفعالا عاطفيا، وإنما هو انفعال عقلي" أي أن العقل يسعى لكي يستعير من العاطفة إحدى صفتها وهي "الانفعال" إنه نوع من الخلق بين الوظائف العضوية للإنسان، فكما قامت الرمزية على تراسل الحواس فإن الشعر -هنا- يقوم على تراسل الوظائف، إنه نوع من تدجين العقل وترويضه ليكون "إنسانيا" أو هو ترقية للعاطفة وترقيع لها لتكون انتظامية.

ومهدبة، ومهما كان امره فهو ليس سوى استجابة قرائية لمتطلبات النص الجديد"⁽⁴⁾.

إن حضور التاريخ في صميم النص الروائي، واعتباره مرجعية جمالية تمنح النصوص الإبداعية تسييرا بنيويا جديدا، ينبع من تقدير المادة التاريخية في حد ذاتها والقدرة على الإحساس بها، وتضمن هذا الإحساس الذي يعد مزية من المزايا الإنسانية، وهذا ما يثبت التفاوت الواضح بين المؤرخين والأدباء أنفسهم وتميزهم عن سائر الأفراد، ويؤكد التباين بين الأمم والجماعات.

ومزية الإحساس الدقيق بالتاريخ يستدعي وعيا موضوعيا، بطبيعة الصيرورة التاريخية، فالعالم ليس شيئا ثابتا لا يتغير ينبثق من يد غيبية خلقا سويا لا يكتنفه النقص، بل ينبغي النظر إلى تلك الأحداث لا على أساس اهتزازات سطحية تقع بين الفينة والأخرى، وفقا لنظام ثابت مستقر، إنما اعتبارها كنتائج لأسباب موضوعية ناجمة عن علاقات الصراع، وتباين البنى الاجتماعية فيما بينها، ولذلك لا ينبغي اعتبار الثابت هو الشيء الهام الحافل بالقيم، إنما ينبغي الوعي بطبيعة هذا الثابت واعتباره متغيرا من متغيرات الطبيعة التي سبقته.

غير أن الخلاف الواضح بين العلماء، "في تمثل الإحساس بالتاريخ عند أمة وأخرى، لن يطمس حقيقة هامة، وهي أن ذلك الحس التاريخي هو الأب المنجب للسير يوم كانت السير جزء من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانبا هاما من تصور الناس للتاريخ، وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يكيف الأحداث ويرسم الخطط، ويقوم بالتفكير والتنفيذ، وتتضاءل إلى جانبه - أعني جانب الفرد العظيم - كل حقيقة أرضية أخرى"⁽⁵⁾.

نسعى في هذا الصدد إلى دراسة علاقة التاريخ بالنص الروائي المغاربي، من خلال مجموعة من النماذج، واعتبار التاريخ مرجعية من مرجعيات النص، وسياقا من السياقات الإبداعية.

إن التقاطع الذي يحدث في النصوص الروائية، من خلال دخول نص خارجي ضمن النص الأصلي، يعود إلى طبيعة النص في حد ذاته باعتباره نسيجا لغويا تجتمع في ثناياه نصوص أخرى متغيرة المستويات متعددة الأشكال، بين نصوص ثقافية سابقة ونصوص ثقافية راهنة، وإن استدعاء الخطاب التاريخي لإنشاء خطاب الرواية

الراهن، يجعل من التاريخ نسيجاً طريفاً مكوناً في المتن الروائي وإننا نحاول من خلال النماذج المختارة، تحديد طبيعة التقاطع بين النص الروائي والنص التاريخي، ومعرفة طبيعة المادة التاريخية المستعملة، وتحديد علاقات هذا الاستعمال بالواقع الراهن. وتجدد الإشارة إلى أن الروايات المختارة ليست روايات تاريخية بآتم معنى الكلمة، إنما هي روايات تستلهم التاريخ للتعبير عن وقائع راهنة معينة، أو لتشيد متن روائي مميز أو بغرض تقديم طريقة جديدة لكتابة التاريخ روائياً، لذلك حق لنا اعتبارها "منطقة وسطى بين التاريخ و الأدب، يؤلف بينهما أن كلا منهما خطاب سردي، إلا أن التاريخ خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكممة في تتابع الوقائع، في حين أن الأدب والرواية علي وجه الخصوص خطاب جمالي تقدم فيه الوظيفة الإنشائية على الوظيفة المرجعية"⁽⁶⁾. واقتصرنا في ذلك على جملة آثار روائية مغاربية هي : ألف و عام من الحنين لرشيد بوجدره. نوار اللوز لواسيني الأعرج. صلاة الغائب للطاهر بن جلون.

وإذا تعالج السياق التاريخي كمرجعية نصية، نفهم ان استلهم الماضي بقربه ام يبعده نابع من حاجة الكاتب إلى قناع يختفي وراءه، ليحفل من رؤيته تكتسي طابع الموضوعية المستمد من أحداث التاريخ، لذلك يتمكن من إنتاج مادة تعبيرية حرة. وتؤدي العودة إلى التاريخ دور المرأة، حين يسقط المبدع معطيات الماضي ليقرأ وقائع الحاضر، فيفهم أبعادها الإنسانية، ويحدد المبدع قراءاته الموضوعية للماضي في ضوء الحاضر الذي يخلع مشاهد همومه في ضوء الماضي .

التاريخ و البنية السردية :

1- وظيفة الإخبار :

يرتبط التاريخ عادة بسرد الاخبار، وتدوين الوقائع ورواياتها بعد ذلك، ولهذا فالمسألة تقوم أساساً على الرؤية الوجودية للكتابة ومقدار حاجة الوجود إلى التدوين وفي هذه الحال نكون إزاء أخبار مجردة لا نعلم صدقها من كذبها، إضافة إلى ذلك فإن معرفة الكتابة وتدوين الأخبار ترتبط بكيفية قيام الكون طبقاً للمورث الأسطوري، الذي رسخته عقلية الإنسان البدائية والمورث الديني المستقي من

الكتب السماوية لا سيما القرآن الكريم، إضافة إلى الحديث النبوي الشريف الذي يعد بياناً له، وغالباً ما كانت مسألة الكتابة في علاقتها بالوجود لا سيما المسلمات المتعلقة بخلق القلم واللوح تؤخذ من المورث الديني الإسلامي .

ورد ذكر القلم في القرآن الكريم بصيغ عديدة كصيغة الأفراد و الجمع، والقسم. أما صيغة الأفراد فنجدها مرتين في سورتي القلم والعلق، وصيغة الجمع نجدها في سورتي لقمان وآل عمران وصيغة القسم توجد في سورة القلم. وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الله ربط العلم بالقلم في سورة العلق، عندما قال: "اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم".

وورد ذكر اللوح بمعنى الشيء الذي كتب عليه القرآن الكريم في سورة البروج وبمعنى ألواح الكتاب المقدس للعهد القديم (التوراة) في سورة الأعراف، كما ورد بأسلوب يحمل معنى منفعياً يقصد به الخشب الذي يستعمل في بناء السفينة في سورة القمر.⁽⁷⁾

وإن كان ارتباط القلم بالعلم واقتراحه به في القرآن الكريم يعكس دوره الوجودي المنوط به، فإنه حسب تأكيد الزمخشري في كتاب الكشاف جاء "تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة"⁽⁸⁾.

وقد ارتبط اللوح في غالبية معناه، بتسجيل مقادير الخلائق وتدوين أعمالهم قبل خلق السماوات والأرض وقد وجدت هذه المسألة اهتماماً كبيراً من لدن المؤرخين والمحدثين خاصة عندما ارتبطت بمرويات الإسراء والمعراج وما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم، من قدر الخلائق إلى جانب هذا فهو حسب رواية الترمذي "درة بيضاء صفائحها من الياقوت الأحمر وطوله ما بين السماء والأرض وعرضه من المشرق إلى المغرب"⁽⁹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الخبر واجه عبر مدارج الحضارة العربية الإسلامية معضلة الوضع التي غالباً ما كانت تؤدي إلى تحريف حقيقي لجوهر المعنى الذي يحمله ومهما تعددت الدوافع الموجودة لظاهرة الوضع في الأخبار فإن هذه الظاهرة تستمد وجودها تبعاً لطبيعة تداول الخبر المتنقل من راو إلى راو آخر، فيتعرض إلى زيادة أو نقصان، فيؤدي إلى حدوث خلل في المعنى الدلالي الأصيل. وتبعاً للأهمية المثلى لعملية العقل فإننا نلمس العديد من الأحاديث الصحيحة الواردة على

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من وضع الاحاديث على لسانه، إضافة إلى حرص القرآن الكريم على أهمية التثبت من الخبر لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين" (10).

كما نشأت نظرية الإنسان في الثقافة العربية الإسلامية لحماية الاحاديث النبوية من الوضع والأخبار المروية. كذلك إن الاستناد إلى الموروث الديني في تحديد الرؤية الكتابية للوجود لا تخرج عن نطاق القلم واللوح المحفوظ، وما يرتبط بهذا الأخير أن الله، "كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجها إلى الوجود وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه الصورة الأخرى إلى الحس والخيال فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليهما...." (11).

وعليه فإن هذه الرؤية تمثل صيغ عرفانية تستند على ما ورد في القرآن والحديث من ناحية تأويلية تعتمد على الباطنية وما تحيل عليه الإشارات الموجزة، وهذا يدفعنا إلى القول: إن الوجود وفق الرؤية الدينية المطروحة والصادرة عما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بشأن القلم واللوح المحفوظ. تؤكد الفعالية المستمرة التي هي من إنتاج الخطاب بحكم "أن الكون وموجوداته يعيشان في سراب الكتابة ومنذ ابتداء الزمان إلى منتهاه، وهو إنما تدافع حروف القلم على اللوح المحفوظ" (12).

تبني وظيفة الخبر في علاقاتها بالمادة التاريخية على معيار الصحة والخطأ، إن كانت المادة التاريخية مادة مؤرخة بشكل مجرد. أما في حال استيعاب النص الروائي للسياق التاريخي فإنه ينبغي التأكيد على أن تصوير التاريخ مسألة نسبية إلى حد بعيد ما لم تتحدد عملية التصوير في علاقاتها بالواقع الحالي (الحاضر). وتكتسب هذه العلاقة قيمتها الفنية في جعل القارئ يعيش التاريخ بمفهوم جديد يفهم بالمتنصيات الراهنة، وفي إعطاء البعد الموضوعي للقوى الاجتماعية والتاريخية والإنسانية التي صاغت عبر مسار طويل من التطور التدريجي الحياة الراهنة.

وبذلك نكون امام التسليم النسبي بمقولة الامانة التاريخية في النص الروائي ذات الصلة الوطيدة بوظيفة الخبر، إذ السياق الروائي وهو يستوعب عناصر التاريخ فإنه يمنح العملية الفنية دورها الحقيقي المنوط بها، فضلا عن الشروط الموضوعية لوظيفة الخبر التقليدية، التي تخضع للقواعد ذاتها للأمانة التاريخية.

نستطيع معالجة وظيفة الإخبار في السياق الروائي، تبعا لحضور المادة التاريخية في تنايا الخطاب وإن كنا في هذه الحال لسنا بصدد معالجة روايات تاريخية بصريح العبارة كما أسلفنا الذكر، فإننا نسعى إلى تتبع نماذج محددة من مواطن أخرى لحضور المادة التاريخية لمقاربة وظيفة الإخبار.

إن الخاصية الأولية لرواية " ألف و عام من الحنين " " لرشيد بوجدره "، لها رواية بأبعاد عجائبية موعلة في الإغراب فضلا عن كونها رواية تجعل الخيال ملتحما مع الواقع التحاما يصعب تفريق أحدهما عن الآخر، ويتجسد التاريخ بمظاهره تحمل أبعاد علائقية بالحاضر، من خلال استثمار معطيات التاريخ الإسلامي، وإسقاطها على الحاضر فنتمكن من فهم الراهن في ضوء التاريخ أو العكس. وتؤكد الطريقة المميزة في الانفتاح على التاريخ من جديد في الرواية من خلال غوص "محمد علمم اللقب" في تداعياته التي تبدو في جوهرها بوحا بما يعتمل في تنايا الذاكرة، "فبعد تسعين سنة بالضبط من وفاة ابن خلدون، أي في الثامن والعشرين من شهر مارس 1498، لم يفتح ابن ماجد - هذا الشعور - طريق الهند البحرية أمام الغربيين، بل بلدان التوابل والحرير والقطن والعبود وفي وقت كان فيه أهل المنامة عاجزين عن تصديق حالة التنسل والتمزق والاستحالة إلى طرائق قديما" (13). وحالة الهوس التي عليها الشخصية الروائية، لا تجعل منها شخصية عبثية سلبية بصريح العبارة، إذ تكون حالة الهوس تلك إمكانية أخرى للتصريح والبوح. ويحقق التاريخ تواجده في هذه الحال متخذا تلك الحالة وسيلة لتأليف نسيج روائي متميز. تتحدد القيمة الفنية للخبر التاريخي في تأكيد اكتشاف جغرافي جديد كان بيد العرب ثم صار بيد البرتغاليين ونوعية الاكتشاف تحمل قيمتها الإستراتيجية فيما يمكن أن تضيفه من فتح طرق أخرى للمواصلات صارت تستغل لأغراض جانبية من لدن البرتغاليين بعد ذلك.

إن الفهم الموضوعي لقيمة هذا الخبر يتأكد في اعتباره محولا من التحولات الهامة التي عرفها تاريخ البحرية العربية، على اعتبار الانتماء الحضاري للأمة في ذلك الوقت كان لا يزال يحقق فاعليته وفق الشروط التاريخية، إذ أبرز ما يميز ذلك العهد على وجه التحديد هو سعي أوروبا الدءوب لمعرفة مختلف أصقاع العالم وكشف حناياه، الشيء الذي أنتج فيما بعد ما يسمى بالكشوفات الجغرافية. وإضافة إلى الأهداف النفعية لهذه الكشوفات و العلمية في الوقت ذاته، فقد أدت حسب العديد من الباحثين في علم التاريخ إلى تفشي موجات الاستعمار في العالم العربي بشكل عام. وتنبني الإحالات الدلالية للخبر التاريخي على أن طريق الهند لم يكن اكتشافا نوعيا تنفرد به أوروبا، إنما هو اكتشاف قديم جديد، قديم على أحمد بن ماجد وجديد على البرتغاليين، إضافة إلى القيمة النوعية لهذا الخبر فإن التاريخ يعرف مسارا جديدا ضمن جدلية التطورات التدريجية لبروز حوادث جديدة مرتبطة أساسا بظهور الحركات الاستعمارية، وما تبع هذه الحركات من ظروف جديدة منالضة.

تحيل وظيفة الإخبار إلى طرح سؤال جوهري يتعلق بطبيعة اكتشاف طريق الهند من لدن البرتغاليين، وبواسطة أحمد بن ماجد بالذات!! ... يعرفنا التاريخ المدون بأن الربان العربي "شهاب الدين أحمد بن ماجد"، من أهم الربانة العرب الذين وضعوا المخطوطات الجغرافية الفلكية والملاحية أهمها كتاب "الفوائد"⁽¹⁴⁾، ومثل هذه المخطوطات تعد من أقدم الوثائق الجديدة التي كتبت عن الملاحة في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لإفريقيا وبلاد الصين، ومثل هذه المخطوطات الأثر البالغ في العلوم البحرية، وتلقي الضوء على جانب من جوانب تقدم الحضارة العربية الإسلامية في العلوم البحرية والملاحية ومدى تأثر البرتغاليين بتلك العلوم العربية. "ولا ترجع شهرة بن ماجد إلى كونه ملاحا قديرا فحسب، لا يزال أهل عدن يقرئون له الفاتحة كل يوم، ولا إلى مؤلفاته الغزيرة في علوم البحار والملاحة والتي لم تكشف إلا في القرن العشرين. وإنما اكتسب هذا الملاح فضلا عن ذلك شهرة دولية حين تبث أنه هو نفس الربان الذي قاد سفينة "فاسكو دي جاما البرتغالي" من ساحل إفريقيا الشرقي إلى الهند لأول مرة في عام 1498"⁽¹⁵⁾، وهو الموضوع الذي استحق اهتماما كبيرا من لدن المؤرخين والمحققين في وقتنا الحالي.

فوظيفة الإخبار هنا تحيل إلى ريادة حضارية تميزت بها الأمة العربية، في فترة من فترات تاريخها الطويل، وعليه فإن كان السياق يدفعنا إلى الإقرار بهذه الريادة، فذلك لأن البرتغاليين أنفسهم لم يكونوا يعرفون طريق الهند، فكانوا يركبون البحر عبر مضيق جبل طارق ويلجئون في الظلمات ويمرون خلف "جبال القمر" ويصلون إلى الشرق، ويمرون عبر المضائق الجبلية في مكان كثير الأمواج، لا تستقر فيه سفنهم فتتكسر فلا ينجوا منهم إلا قليل، واستمروا على ذلك مدة زمنية وهم يهلكون هادفين بذلك إلى معرفة طريق الهند، إلا أن دهم عليه شخص ماهر من أهل البحر يقال له "أحمد بن ماجد" (16).

إن الوظيفة الدلالية للخبر تتمثل في أن طريق الهند لن يكون بعد ذلك طريقا عاديا في البحر تمر منه القوافل التجارية لا سيما تلك المحملة بالتوابل، وهي التجارة التي سعى البرتغاليون إلى السيطرة عليها ولكنهم لم يعلنوا نيتهم باديء الأمر، إذ متابعة السياق الروائي تثبت الدلالة الموضوعية للخبر التاريخي، من حيث أن الاكتشاف ليس سوى طريقا استعماريًا هامًا، "وأقصى وقتا طويلا لكي يدرك ذلك كله، غير أن القصص عن قوافل الملح، وملحمة الفلفل... ذكرته بأن السيطرة على الشعوب كانت مرهونة بطرق المواصلات" (17).

تستجيب ذهنية "محمد عديم اللقب" لعامل موضوعي يتعلق بفهم حركة التاريخ، وأن هذه الحركة لا تصنع إيجابيتها إلا بواسطة عوامل واقعية توفر لها شروط النجاح، وهنا تتحدد دلالة الخبر التاريخي من حيث كونه يقدم إمكانية جديدة للسيطرة على الشعوب تتمثل في طرق المواصلات، ولهذا فالسياق الروائي عندما يوظف خبرا تاريخيا يتعلق باكتشاف طريق الهند من لدن البرتغاليين، بواسطة الربان العربي "أحمد بن ماجد"، فإن المتلقي في هذه الحال لا يفهم من مضمون الخبر سوى اكتشاف طريقا للمواصلات يسهل حركة الاستعمار. وهنا تتحدد الوظيفة الجمالية للإخبار. والتاريخ يثبت حقيقة أن "الظروف سرعان ما تغير الأحوال، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، فوجئت مصر بنجاح الملاح البرتغالي "فاسكو دي جاما" في الالتفاف حول إفريقيا عن طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح) فيما بعد والوصول إلى شواطئ الهند، وقد ترتب على هذا الكشف الجغرافي الخطير أن تحول النشاط التجاري إلى هذا الطريق الجديد بدلا من الطريق

الأحمر، مما أدى إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التي كانت تحصلها على بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا⁽¹⁸⁾. وهذه التحولات التي أنتجت ظروف سلبية في نظر المماليك، إذ لم تعد دولتهم تحصل أرباحاً على بضائع الشرق الأقصى، التي تسلك طريق جدة، أو تعبر الأراضي المصرية إلى أوروبا إذا ما أعتبر أن تلك الأموال تمثل مدخولاً أساسياً للاقتصاد المملوكي. وعليه فإن وظيفة الإخبار تقوم بتحديد معنى آخر للخبر الوارد، يتمثل في فهم التاريخ على نسق آخر من علاقات الصراع القائم بين العرب وأوروبا آنذاك، بغرض السيطرة وكسب ملكيات أكثر، وإن كانت هذه السيطرة تحركها الظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة التي عاشتها أوروبا وقتئذ، إذ المعطيات الجديدة كانت تحتم وجود حركة استعمارية. والكشوفات الجغرافية الجديدة عامل مساعد، لذلك تجسد وظيفة الإخبار ضمن السياق الروائي نفسه، أتموجاً للصراع على امتداد التاريخ الإسلامي من ذلك ثورة الزنج. "المعتصم وقد عرفه التاريخ لقساوته إزاء السود ومطاردته لهم وهو الذي قضى على أول ثورة حقيقية عرفها الإسلام ثورة الزنج ولقد دامت خمس عشرة سنة، وهزت بغداد من قواعدها ما بين 255 و270، حسب التقويم الإسلامي".⁽¹⁹⁾ ووجه التقديمية في هذه الثورة كونها قامت ضد استبداد الأتراك بشؤون الحكم واحتكارهم لموارد الدولة العباسية. وفي هذه الحال يمكننا الحديث عن علاقات الصراع وعوامل التناقض في التراث العربي الإسلامي، بحسب وظيفة الإخبار في النموذج الأخير. والمنهج المادي التاريخي باستطاعته كشف علاقات التطور وفهم الحركة التاريخية للتراث وتحديد قيمته النسبية وعلامات حضوره في واقع الأمة العربية لترسيخ العلاقة الموضوعية المميزة للشواحيح الرابطة، بين العناصر التقديمية في التراث الثقافي العربي والعناصر التقديمية في ثقافتنا القومية الراهنة. وبناء على ما سبق فإن الحل العلمي لإشكالية العلاقة بين الواقع العربي بخصوصيته الوطنية والاجتماعية، والتراث السالف، هو القادر على وضع المعالم الموضوعية لخصوصية تلك العلاقة. وتتوقف هذه المعالم "على توفر الوضوح العلمي لدينا بحقيقتين أولاً هما، حقيقة المحتوى الثوري لحركة التحرر الوطني العربية في حاضرها وفي آفاق تطورها المستقبلية، وتانيتهما، حقيقة الترابط الجوهرية بين ثورية هذا المحتوى وتورية الموقف من

التراث، بمعنى ضرورة كون الموقف من التراث منطلقاً من الحاضر نفسه، أي من الوجه الثوري لهذا الحاضر".⁽²⁰⁾ وظيفة الإخبار في هذه الحال تستمد فعاليتها الفنية من الخاصية التقريرية للتاريخ، وإن ثورة الزنج قامت ضد قادة الأعاجم الأتراك، الذين استبدوا بمقاليد الدولة العباسية، سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الإصلاح، وأغلقوا السبل أمام من تراوده آمال الإصلاح من خلال جهاز الدولة، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشؤونه كل الاستبداد.

وترجع أسباب قوة المماليك الأتراك إلى سعي الخليفة العباسي المعتصم، إلى تكوين فرقة (الجند المغاربة) ضمن جيشه، وهي فرقة من موالى جوف مصر وجوف اليمن وجوف قيس ... وفرقة (الفراعنة أمن أهل فرعانة... وفرقة (الأشروسية) من أهل أشروسنة... ولكنه سعى فارتكب أعظم خطأ في الدولة في عصره آنذاك عندما أخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك، ويقيم لهم المعسكرات ويجعل لهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة، حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي سامراء⁽²¹⁾.

ويحقق السياق الروائي وفق التدخل التاريخي انزياحه النوعي في استثمار وظيفة الإخبار من حيث جعل صورة الزنوج إمكانية تعبيرية ترتبط بعامل نفسي هو الفزع، ومنه الفزاعات التي كانت "مسعودة عديمة القلب" تصنها لإفراغ الطيور التي تحط بالحديقة (حديقة المثل)، ومنه أيضاً استغلال تلك الصورة كوسيلة لتخويف الأطفال من لدن الأمهات، بتهديدهم بإخفاء زنجي تحت السرير.⁽²²⁾ ومن منطلق آخر تسعى وظيفة الإخبار التاريخي فضلاً عن كونها تجسد تطلعات "بمجمع المنامة" في التخلص من حاكمه "بندر شاه"، فإنها لا تلبث أن تحقق حلم التغيير باستثمار عناصر التاريخ وجعله صورة مقابلة لمعطيات الواقع وظروف التناقض الاجتماعي وفي هذه الحال تتحقق الوظيفة الجمالية للإخبار من خلال جعل الراهن منطقاً حياً لكتابة التاريخ لذلك أمكننا التماس الدوافع الموضوعية لثورة الزنوج وتداخل نسيج المتخيل السردي مع معطيات التاريخ لرؤية الحاضر. وتمثل الذاكرة في رواية "صلاة الغائب للطاهر بن جلون" إمكانية نوعية في جعل وظيفة الإخبار تنحو منحى تعبيرياً آخر، يتحدد في رواية تاريخ مدينة فاس المغربية إذ تؤكد على حلقة من حلقات مقاومة المستعمر. والخبر التاريخي في هذه